الأستاذ الإمام محمد عبده

(كان في قلب بلاد الشرق، بلاد الخوف والرهبة والاستبداد، رجلاً جرئ الفؤاد حر الضمير، يجاهر برأيه ويثبت عليه، ولا يخشي بأس متسلط، ولا يهاب صوله كبير، وقد جر عليه ثباته علي رأيه وجراءته وقلة خوفه ورهبته أهوالاً كثيرة ومحناً عديدة)

جريدة المقطم

ان الله جل جلاله يبعث للأزهر بين الفترة والفترة من ينفخ فيه روحه ويرد عليه شبابه فكان هو أحد أولئك المجددين، ولد محمد عبده خيرالله في قرية شنرا بمركز الجعفرية كما ذكر بخط يده وافادت بذلك وثائق دار المحفوظات وكان ذلك في عام 1266هـ/ 1849 م.

أما والده عبده خيرالله فولد في محلة النصر مركز شبراخيت بمحافظة البحيرة وهي القرية التي نشأ فيها الإمام بعد ذلك، وتعود جذور والده إلى اصل تركماني، أما والدته فهي السيدة جنينة بنت عمر عتمان من عائلة طيبة تنتمي إلى قرية حصة شبشير بمركز السنطة وجذورها من بني عدي.

وهاجر والد محمد عبده هو وأسرته إلى الغربية فرارا من ظلم بعض الحكام في مديريته بعد أن وشى أحد الحاقدين على أسرته وكان ذلك في عهد عباس الأول واستقروا بقرية شنرا بالجعفرية واستأجروا أرضا وعملوا فيها حتى عهد سعيد فعادوا إلى البحيرة وكان والده يتصف بالكرم والشجاعة والشهامة وعلو الهمة والبراعة في استعمال السلاح وفي خلال إقامته في الغربية أحبه مصطفى الشناوي وأحمد ومحمد أخواه وكانوا موظفين في دائرة الخديوي إسماعيل بالقرشية التابعة لمركز الجعفرية ومن هنا كانت العلاقة القديمة بين أسرة الإمام محمد عبده وأحمد باشا المنشاوي واللذان قد ربطت بينهما صداقة خالصة.

حفظ محمد عبده القرآن الكريم عند محفظ قرآن في قرية شنرا ثم التحق في عام 1862م بإحدى مقارئ الجامع الأحمدي فجود القرآن وكان سريع الحفظ يتمتع بالذكاء والحكمة بالإضافة إلى حرصه على العلم إلا أنه كاد أن ينصرف إلى الزراعة فعاد إلى قريته وتزوج في عام 1865م وهو ابن السادسة عشر من عمره وعزم على ترك

طريق العلم لولا تدخل خال ابيه ويدعي الشيخ درويش خضر وكان من المتصوفة الرحالة وتردد على زوايا الصوفية في صحراء ليبيا ووصل إلى طرابلس وتلقى الطريقة الشاذلية والعلوم السياسية والدينية وكانت الصوفية في تلك الأنحاء أهل بصيرة واستنارة عملوا على نشر الإسلام في مجاهل إفريقيا وقاوموا زحف التنصير بالقارة، فصاحبه الإمام لمدة فكان له دور كبير في حياته وجعله متصوفاً ورده إلى طلب العلم في طنطا.

ويقول عنه محمد عبده أنه أخرجه في بضعه أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد، وهكذا تربي في بداية حياته تربية صوفية نقية جعلته زاهداً في الشهوات والجاه الدنيوي.

ثم انتقل من الجامع الأحمدي والتحق بالأزهر الشريف عام **1866**م وكان يرى أن طريقة التدريس في الأزهر طريقة جامده تعوقه على النمو فانصرف عن العلوم الأزهرية وتطلع إلى علوم جديدة وحضر دروس الشيخ حسن الطويل والشيخ محمد البسيوني وفي القاهرة التقى بالرجل الثائر السيد جمال الدين الافغاني ووجد عنده مذهباً فلسفيا وروحاً جديدة لم تكن مألوفة عند شيوخ الازهر فتأثر به كثيرا واقبل عليه وصاحبه، ليصبح أستاذه الأول واخذ عنه بعض العلوم الرياضية والفلسفية والكلامية.

فكان له أثر كبير في توجيهه أدبيا وعلميا، واخذ بعض المشايخ يتقولون عليهم بالأقاويل ويزعمون أن تلقي تلك العلوم يفضي إلى زعزعة العقائد الصحيحة، فلما رجع إلى بلده عرض ذلك على شيخه الصوفي درويش خضر فقال له شيخه (إن الله هو

العليم الحكيم، ولا علم يفوق علمه وحكمته، وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل، وأعدي أعداء الحكيم هو السفيه، وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة).

حصل محمد عبده على العالمية من الأزهر الشريف عام **1877**م بالرغم من أن الشيوخ كانوا ينقمون على نزعاته التجديدية والإصلاحية واتصاله بالسيد جمال الدين الأفغاني، وبعد حصوله عليها قام بالتدريس في الأزهر فألقى دروس في المنطق والكلام والأخلاق وفي عام **1878**م أصبح أستاذاً للتاريخ في مدرسة دار العلوم واستاذاً للأدب في مدرسة الالسن بجانب مواصلته للتدريس في الأزهر إلا أنه أُبعد عن عمله بالتدريس عام **1879**م بعد عزل الخديوي إسماعيل وإبعاد السيد جمال الدين الافغاني عن مصر.

وعندما تولى رياض باشا الوزارة في عهد الخديوي توفيق عام **1880**م، أعاد الإمام إلى القاهرة وعينه محرراً في جريدة الوقائع المصرية ثم أسس الإمام القسم الأدبي بالجريدة والذي كان له أثر كبير في الارتقاء بالقلم والفكر والثقافة .

وعندما اشتعلت ثورة الزعيم أحمد عرابي كان الإمام أحد الرؤوس المدبرة لشئون الحكومة الوطنية مع أنه في بداية الامر كان ينصح عرابي بالاعتدال وعدم الالتجاء إلى العنف ولما انهزمت الثورة العرابية قبض على محمد عبده بتهمة التآمر والاشتراك في الثورة وقضى في السجن ثلاثة أشهر وأيام تمهيدا لمحاكمته، وتمت محاكمته أمام محكمة عسكرية وحكم عليه بالنفي خارج مصر لمدة ثلاث سنوات عام **1882**م ، وكان الإمام وقتها في سن الثلاثين. وقد نظم قصيدة أثناء سجنه تتكون من مائة وخمسة عشر بيتاً وصف فيها الثورة العرابية وموقفه الوطني منها يقول في مطلعها :

مالي يعنف قلبي من تغاضيه		دهر يبالغ في عجب وفي تيه
أبيتُ ليلي كملسوع تساوره		زرق الأفاعي وقد شدت أياديه

وعلى إثر حكم النفي اقام في بيروت عام **1883**م وعمل مدرسا بمدرسة جمعية المقاصد الخيرية للأدب والتوحيد وعلوم الدين ثم رحل إلى باريس بعد أن استقر لمدة عام في الشام وذلك في عام **1884**م وأسس جمعية العروة الوثقى في باريس وأصدر جريدتها بالاشتراك مع أستاذه جمال الدين الافغاني فكانت الجريدة تتناول قضايا سياسية أزعجت الحكومة الإنجليزية التي عملت جاهدة للتصدي لها بعد أن وجدت فيها خطورة على مصالحها ونفوذها في الشرق الاسلامي فتوقفت بعد ثمانية أشهر وصدرت هذه الجريدة ثمانية عشر عددا فقط ومنعت من دخول مصر والهند حيث النفوذ الإنجليزي.

وفي فرنسا بدأ الإمام في تعلم اللغة الفرنسية ولكنه أجادها فيما بعد عودته من المنفي وفي أثناء عمله بالقضاء فكان يرى من لم يعلم لغة من لغات العلم الأوروبية لا يعد عالما في هذا العصر وبعد أن توقف إصدار جريدة العروة الوثقي عاد الإمام إلى الشام وفي طريق عودته مر بتونس فاستقر بها عامان.

عاد من المنفي عام **1887**م في عهد الخديوي توفيق الذي عمل على التخلص منه وابعاده عن الأزهر والتعليم فعينه قاضياً بالمحاكم الأهلية ببنها فصار إليه إصلاح القضاء ثم نقل إلى المنصورة ومنها إلى الزقازيق، وبعدها تمت ترقيته إلى الدرجة الأولى بالقاهرة عام **1892**م، ثم مستشاراً في الاستئناف عام **1895**م ليصبح عضو اليسار في دائرة باسيلي تادرس عام **1896**م وفي دائرة سعد زغلول عام **1897**م.

وعندما تولى الخديوي عباس حلمي الثاني عرش مصر عام **1892**م بعد وفاة الخديوي توفيق، حدث تقارب بينه وبين الإمام واخذ الخديوي يشكو للإمام ما يلقاه من شرور الإنجليز وتدخلهم السافر في شئون الدولة فاستغل الإمام الفرصة لأنه كان يؤمن أن لا سبيل إلى السير في طريق حركة الاصلاح بدون تأييد الخديوي والحكومة، فدعاه إلى إجراء وجوه الإصلاح على المعاهد التي له ولاية عليها ولا ولاية للإنجليز عليها وهي معاهد الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية فاعجب الخديوي بأفكار الإمام أو بالأصح وجد ضالته لمواجهه الإنجليز والحد من تدخلهم وهي السلطة الدينية وتقابل الخديوي والإمام مراراً في قصر عابدين والقبة والمنتزة للتباحث فيما يمكن القيام به من أجل خدمة الوطن ومواجهة المستعمر.

فأنشأ مجلس إدارة الأزهر عام **1894**م والذي تكون من خمسة أعضاء ثلاثة منهم من شيوخ المذاهب وهم الشيخ سليم البشري المالكي شيخ السادة المالكية والشيخ عبدالرحمن الشربيني الشافعي شيخ السادة الشافعية والشيخ يوسف الحنبلي شيخ السادة الحنابلة بالإضافة إلى عضوان هم الشيخ عبدالكريم سلمان أحد أعضاء المحكمة الشرعية العليا والإمام محمد عبده.

وظل الإمام عضوا في مجلس إدارة الأزهر أحد عشر عاماً حتى وفاته وكانت مهمة ذلك المجلس الإشراف على التعليم والتربية في الجامعة الأزهرية ، وعمل على استصدار قانون إصلاح الأزهر عام **1895**م فكان يرى أن في إصلاح الأزهر صلاح الأمة الاسلامية بأكملها وعمل على رد كرامة الأزهريين .

واستطاع الإمام محمد عبده أن يضع مشروعاً كاملاً للإصلاح، وكان شيخ الأزهر الشيخ حسونة النواوي يشاطر الشيخ محمد عبده كثيراً من آرائه، ولكن سرعان ما تبدل

موقف الشيخ حسونة عندما ظهر له أن الخديوي قد انقلب على الإمام محمد عبده وناصبه العداء ولما عزل الشيخ النواوي، وحل محله الشيخ سليم البشري الذي عرف عنه أنه رجلٌ محافظٌ مناوئٌ للتجديد فعطل أعمال مجلس إدارة الأزهر واصدر قراراً بإلغاء الاعانات التي كانت تعطي للطلبة المتفوقين.

وبعد عزل الشيخ سليم البشري رشحت المعية الخديوية الشيخ السيد علي البيلاوي فعين شيخاً للأزهر وكان على وفاق تام مع الإمام محمد عبده ومشروعه الإصلاحي فاستجاب له واحبه مع علمه أن هذا يغضب الخديوي وقد يكلفه هذا ضياع المنصب منه وانصرف مجلس الادارة إلى الاشتغال بإنجاز الاصلاحات التي كانت قد اهملت في عهد مشيخة سليم البشري وتكون داخل الأزهر في تلك الفترة حزب لمعارضة الإصلاح.

وكان على رأس ذلك الحزب الشيخ محمد الرفاعي والذي كان مرشحا لمنصب مشيخة الأزهر ومن أعضاء الحزب الشيخ المنصوري الذي كان قد عينه الشيخ سليم البشري شيخاً لرواق الصعايدة، وعمل الحزب على تقديم عرائض ينتقد فيها أعمال مجلس إدارة الأزهر كما حظى الحزب بتأييد الخديوي بعد أن ساءت العلاقات بينه وبين الإمام حول بعض المسائل المادية اذ رفض الإمام وكان عضوا في مجلس الأوقاف طلباً للخديوي باستبدال بعض أراضي الأوقاف المعدة للبناء في الجيزة بمزرعة من مزارع الخاصة الخديوية لأن في ذلك غرماً للمسلمين والدولة.

فأصاب السيد البيلاوي اليأس من صلاح الحال فتقدم باستقالته بعد أن ضاق صدره بما يحام حوله وقام الخديوي بتعيين الشيخ عبدالرحمن الشربيني لمقاومة تيار الاصلاح حيث كان الشربيني رافضاً للفكر الاصلاحي، فتبعه الإمام محمد عبده بالاستقالة من

مجلس إدارة الأزهر بعد أن وجد نفسه وحيداً في مواجهة هذا الحزب وأن خطته لإصلاح الأزهر الشريف أصبحت في مهب الريح وكان ذلك عام 1323هـ/ 1905م وتبعه في تلك الاستقالة من اداره الأزهر السيد أحمد البسيوني الحنبلي شيخ السادة الحنابلة بالأزهر والشيخ عبد الكريم سليمان.

كان الأستاذ الإمام محمد عبده يمثل منهج إصلاح وتجديد في فترة تميزت بالجمود والتقليد فكانت الأمة بحاجة إلى دعوة إصلاحية، والتجديد هو مواكبة التقدم العلمي والنهضة الحديثة، فكان محمد عبده يرى بأن التجديد لا ينبع إلا من عقيدة راسخة تؤمن أن فيه صلاحاً للأمة من غير إهمال للتراث الإسلامي ويؤمن إيمانا شديداً بأن إصلاح التعليم هو اللبنة الاولي في بناء مجتمع متقدم يواجه الزحف الغربي في التقدم والتحديث عن الشرق الإسلامي وأن أسباب خذلان أحوال المسلمين هو القصور والإهمال في التعليم الديني.

فنادى بتجديد مناهج التعليم، كما نبه على خطورة المدارس الاجنبية التي اقامها الغربيون في ربوع العالم الاسلامي وحذر من أن هدفها هو السيطرة على عقول ابناء المسلمين والتأثير عليهم، فدعا إلى فرض رقابة الحكومة علي تلك المدارس .

ومن مظاهر التجديد التي دعا لها محمد عبده التخلي عن الجهل والخرافات، والتحلي بالعلم واحترام العقل والتفكير بالإضافة إلى الجمع بين الأصالة والمعاصرة فلا خصومة بين الدين والتقدم العلمي ومع هذا كان بعض الأساتذة في الأزهر يذمون الإمام ويرفضون فكره الاصلاحي إلا أنه ليس بصحيح أن كل أبناء الأزهر كانوا حرباً على الإمام وناصبوه العداء ولعل مما يدل على هذا الرفض لخطاب التجديد والإصلاح من بعض الأساتذة والصراع العنيف الذي خاضه، هو ما رواه الشيخ مصطفى

عبدالرازق عندما كان طالباً من صغار الطلبة أيام جاء الشيخ محمد عبده إلى الأزهر وكان أساتذته يذمون لهم الشيخ ويمثلونه خطرا داهما على الدين واهله فتتأثر بذلك عقولهم وكان يتجنب الاستماع إلى دروسه مع أنه صديق لوالده.

وذات مره حضر درس للإمام ليري كيف هي وجوه الملحدين وعقولهم وقلوبهم فلما راي الإمام وكان في الرواق العباسي وجلس يستمع له وهو يفسر آيات من كتاب الله قال:

(اللهم إن كان هذا الحاداً فأنا أول الملحدين).

إن كان رفضاً حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضى

وكان يحضر دروس الإمام الكثير من الأدباء والنبهاء والأساتذة على رأسهم السيد محمد رشيد رضا، سعد زغلول، حفني ناصف، مصطفى المنفلوطي، أحمد تيمور، عبد الوهاب النجار، مصطفى عبدالرازق، محمد مصطفى المراغي، محمد الأحمدي الظواهري، محمد مأمون الشناوي، عبد المجيد سليم، طنطاوي جوهري وغيرهم.

وفي 29 مايو عام 1895م مُنح الإمام كسوة التشريف العلمية من الدرجة الثالثة، ثم منح بعد سنة واحدة كسوة التشريف العلمية من الدرجة الثانية في 20 ابريل عام 1896م، كما عين مفتياً للديار المصرية في 3 يونيه عام 1899م فأفاد القضاء الشرعي وخدم الأوقاف الإسلامية أكبر خدمة، وعين عضواً دائماً في مجلس الشورى في 25 يونيو من نفس العام وعمل على تقريب وجهات النظر بين المجلس والحكومة وإزالة الخلاف الواقع بينهم في تلك الفترة ثم منح كسوة التشريف العلمية من الدرجة الأولى في أغسطس 1899م.

وللشيخ محمد عبده دور كبير في إقامة العديد من الجمعيات ومن أشهر الجمعيات التي شارك في تأسيسها جمعية إحياء الكتب العربية والتي كانت تهدف إلى إحياء التراث العربي وشارك أيضا في تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية عام **1892**م وكان الغرض منها تربية الأيتام وغير القادرين على نفقات التعليم وإنشاء مدارس لهم فتم انتخابه رئيساً لها في عام **1900**م وبقي في رئاستها حتى وفاته فوطد دعائمها ، كما كان له الفضل في التفكير في إنشاء الجامعة المصرية بجانب الجامعة الازهرية.

ومن مؤلفاته : رسالة التوحيد، حاشية عقائد الجلال الدوانى، الرد على الدهريين (ترجمها من الفارسية الى العربية في بيروت عام **1885**م)، الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، رسالة في وحدة الوجود، العروة الوثقى مع جمال الدين الافغاني وتضمنها مقالات اغلبها سياسية، محاضرات في ابن خلدون، تفسير جزء تبارك وجزء عم، شرح مقامات الهمذاني بديع الزمان، نظام التربية والتعليم بمصر وهو رسالة في ابلغ الطرق للتربية والتعليم، شرح كتاب البصائر النصيرية.

و في أواخر حياه الإمام اصابه السرطان واعتزم على السفر إلى أوروبا للعلاج فسافر إلى الإسكندرية للإبحار منها إلا أنه لم يستطع السفر وعاجله الموت فصعدت روحه إلى بارئها يوم **11** يوليو سنة **1905**م عن عمر يناهز **58** عاماً.

رحل الفيلسوف العظيم بعد افنى حياته من أجل أمته ورسالته، رحل الذي حارب من أجل أن يرد الدين إلى ينابيعه الأولى ويخلصه مما علق به من شوائب مادية ، وقد نقل الجثمان إلى محطة الاسكندرية ثم نقل إلى القاهرة في قطار خاص وشيعت جنازته إلى قرافة المجاورين، وكان تأبينه الرسمي في يوم الاربعين أمام قبره واشترك فيه الشيخ أبي

خطوة وحسن باشا عبدالرازق وحسن باشا عاصم وقاسم أمين وحفني ناصف وحافظ ابراهيم، وقد نظم الإمام قصيدة أثناء مرضه ومنها :

ولست أبالي أن يقال محمد	أبل أم اكتظت عليه المآثم
ولكن دينا قد أردت صلاحه	أحاذر أن تقضي عليه العمائم

ويقول الشيخ طنطاوي جوهري في رثائه :

ألم ترى أن النعش فوق رؤوسنا	نجوم عليها القطب في فلك يجري
ولولا التقى والدين قلت تفزعت	لمصرعه الافلاك والكوكب الدري

ومن قصيدة شاعر النيل حافظ إبراهيم في رثاء الأستاذ الإمام :

سلام على الإسلام بعد محمد	سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجى	على البر والتقوى على الحسنات
لقد كنت أخشى عادي الموت قبله	فأصبحت أخشى أن تطول حياتي
فوا لهفي والقبر بيني وبينه	على نظرة من تلكم النظرات
وقفت عليه حاسر الرأس خاشعًا	كأني حيال القبر في عرفات
بَكى الشَرقُ فَارتَجَّت لَهُ الأَرضُ رَجَّةً	وَضاقَت عُيونُ الكَونِ بِالعَبَراتِ
فَفي الهِندِ مَحزونٌ وَفي الصينِ جازِعٌ	وَفي مِصرَ باكٍ دائِمُ الحَسَراتِ
وَفي الشَأمِ مَفجوعٌ وَفي الفُرسِ نادِبٌ	وَفي تونُسٍ ما شِئتَ مِن زَفَراتِ
بَكى عالَمُ الإِسلامِ عالِمَ عَصرِهِ	سِراجَ الدَياجي هادِمَ الشُبُهات

واما الشاعر الجزائري الشيخ محمد مصطفى الخوجة والذي لازم الإمام محمد عبده خلال زيارته الجزائر فأنشد قائلاً بعد وفاته :

وأكبادنا ذابت أسـى وكـآبة		وأعيننا مـثـل العيون الهوامر
على موت مفتي المسلمين وفخرهم		ومن كان للإسلام نور البصائر

ولا يفوتني أن اذكر بعض الآراء التي مدحته ومنها قول الكاتب الكبير عباس محمود العقاد:

(الأستاذ الإمام محمد عبده اعظم رجل ظهر في مصر وما جاورها من خمسة قرون).

بينما قال عنه تلميذه ورفيقه السيد رشيد رضا:

(يا لها من عمامة شرفت برأس صاحبها، حتي حسدتها الطرابيش، وهابتها التيجان، وعظمتها البرانيط).

***